

# بحر النجف

## ودوره في ربط العراق في العالم الخارجي

الأستاذ الدكتور حسن عيسى الحكيم (\*)

### المقدمة

لموقع العراق المتوسط بين القارات القديمة (آسيا، وأفريقيا، وأوروبا) أهمية تاريخية وحضارية وبشرية، فهو الموصل الشرق بالغرب عبر طرقه ومواصلاته، وتعود هذه الأهمية إلى عصور سحيقة، وما زال التواصل لهذه الأهمية قائماً حتى الوقت الحاضر، وإن بحر النجف هو واحد من الطرق التي كان يربط العراق بالعالم الخارجي، فالبحر بصفته واسطة نقل مائية توصل العراق بالخليج العربي، ومن ثم بالهند والصين، فإن منطقة البحر بمساحتها الشاسعة تربط العراق بالجزيرة العربية وبلاد الشام عن طريق القوافل التجارية، أو الوصول إلى الديار المقدسة، لأداء فريضة الحج، فقد اشارت المصادر إلى (باب الشام) إحدى بوابات الكوفة، كما أشارت رحلة نيبور عام ١١٧٦هـ/١٧٦٥م إلى (باب الشام) إحدى بوابات سور النجف<sup>(١)</sup>. وقد حدد المستشرق الفرنسي (ماسينيون) الطريق البري المبتدئ من مدينة النجف إلى الطقطقانة إلى عمان والسويس<sup>(٢)</sup>. وكان الوصول إلى مدينة البصرة ومن ثم إلى الخليج العربي سواء من مدينة الحيرة في عصر ما قبل الإسلام، أم من مدينتي الكوفة والنجف في العصور الإلامية يتم عن طريقين أحدهما (مائي) وهو ممر (بحر النجف) والآخر (بري) وهو الطريق المار بمدينة الرحبة ومنه يتفرع إلى طريقين أحدهما إلى البصرة والآخر إلى مكة المكرمة. ومن الطريق الثاني يتفرع طريق إلى بلاد الشام، وكانت (بادية الشام) تمتد إلى مدينتي الحيرة والكوفة، فيقول الحميري: (إن جزيرة العرب مما يلي الشرق في الخط الذي يخرج من ساحل إيلة فيمر مستقبل الشرق في أرض مدين إلى تبوك ودومة الجندل إلى البلقاء وتيماء ومآب وهي كلها من الشام، ويمضي في

(\*) من أعلام مؤرخي النجف وأدبائها، رئيس جامعة الكوفة سابقاً.

عن: مجلة دراسات نجفية / س ١ ع ٢ / ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(١) نيبور: مشاهدات نيبور في رحلته ص ٧٩. الخياط: (المشهدان في رحلة نيبور) مجلة الإيمان العدد ٢٧١، لسنة

١٣٨٣هـ/١٩٦٥م.

(٢) ماسينيون: الرحلة ص ١٣١.

وادي شيان وتغلب وبكر ويتصل بالكوفة والنجف والقادسية والحيرة<sup>(١)</sup>. ويعود هذا الطريق البري إلى عصر ما قبل الإسلام وفي عهد دولة المناذرة في الحيرة، فيقول عبد المسيح بن عمرو بن بقلية الغساني (رأيت المرأة تخرج من الحيرة وتضع قلتها على رأسها لا تزود إلا رغيفاً واحداً حين تأتي الشام)<sup>(٢)</sup>.

### بحر النجف / التسمية والموقع:

ورد في المصادر التاريخية والجغرافية لفظ (بحر) على النجف، والتصق هذا اللفظ بأسماء ومواقع قريبة من النجف أو يقترب بعضها من البعض الآخر. فقيل: (بحر النجف) و(بحر الحيرة) و(بحر بانقيا) و(بحر الملح). وتشير المصادر إلى وجود ارتباط جغرافي متين بين هذه المواقع التي التصق بها لفظ البحر، فقد كانت أرض النجف قبل الإسلام تدعى بمنطقة (ظهر الحيرة) أو (ظاهرة الحيرة)<sup>(٣)</sup>. ومعنى ذلك أنه ما غلظ من الأرض وارتفع<sup>(٤)</sup>، فالمنطقة المطلة على البحر سميت بالنجف، ونسب البحر إليها، وهو الأكثر شيوعاً في المصادر والمراجع، أما الحيرة فهي المدينة والمملكة العربية العريقة التي أسسها المناذرة اللخميون في عصر ما قبل الإسلام، وقد التحق بها البحر لوقوعها على ضفاف مياهه، وقد امتدت آثار الحيرة الحضارية إلى منطقة النجف قبيل تمصيرها فبنيت القصور والأديرة والقلاع والمقابر، وإن الكتف الترابي الممتد من النجف إلى الحيرة، والمطل على البحر يشير إلى هذه الآثار، يقول المؤرخ اليعقوبي: (إن الحيرة على النجف، والنجف كان ساحل بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة، وهي منازل آل بقلية وغيرهم)<sup>(٥)</sup>. وما زالت منطقة (بحر النجف) وحتى وقتنا هذا مملحة كبيرة يعتاش عليها كثير من الناس، وإلى ذلك أشار الأحنف بن قيس بقوله: (نزلنا أرضنا حشاشة من طرف فلاة. وطرف ملح أجاج في سبخة نشاشة لا يجف شواها، ولا ينبت مرعاها، يأتينا مثل مريء النعام)<sup>(٦)</sup>. وبقي لفظ (بحر الحيرة) يرافق لفظ (بحر النجف) في العصور العربية الإسلامية مع لفظ (بحر بانقيا). ولكن لفظ بحر النجف قد طغى على اللفظين الآخرين. ففي عام ٦٤ هـ نزل المختار بن أبي عبيد الثقفي في بحر الحيرة واغتسل فيه<sup>(٧)</sup>. وورد لفظ (بحر بانقيا) في شعر

(١) الحميري: الروض المعطار ص ١٦٤.

(٢) الشريف المرتضى: الأمالي ٢٦١/١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٨٦/١٩.

(٤) ابن منظور: لسان العرب ٥٢٣/٤، الزبيدي: تاج العروس ٣٧١/٣.

(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٦٩.

(٦) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ١٦٦.

(٧) الطبري: التاريخ ٥٧٨/٥.

الأعشى بقوله<sup>(١)</sup>:

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذا راح مفعما  
وقد أشارت المصادر التاريخية إلى القدم التاريخي لهذه التسمية، فقد ذكر أن إبراهيم الخليل عليه السلام نزل أرض بانقيا راعياً للغنم التي كانت تسمى باللغة النبطية (بانقيا)<sup>(٢)</sup>. وبقيت هذه المنطقة مطلة على البحر حتى حركات التحرير العربية الإسلامية للعراق، فقد مر بها خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة الشيباني وقد دخلها فاتحين<sup>(٣)</sup>. ويقول الطبري: إن أهل بانقيا صالحوا خالد بن الوليد على ألف درهم وطيلسان في السنة<sup>(٤)</sup>. ويقول قدامة بن جعفر: إن خالداً بعث بشير بن سعد الأنصاري إلى أرض بانقيا، ثم بعده جرير بن عبد الله البجلي، وتم الصلح مع أهلها<sup>(٥)</sup>. ولما أتم خالد بن الوليد تحرير المنطقة الممتدة من (الغري) وهي النجف اليوم، إلى مدينة الحيرة، عاد إلى معسكره في الغري ومنها سار إلى عين التمر<sup>(٦)</sup>. وقد أشار ضرار بن الأزور إلى منطقة بانقيا بقوله<sup>(٧)</sup>:

أرقت بانقيا ومن يلحق مثلما لقين بانقيا من الحرب بارق

وبقيت منطقة بانقيا على ولاء للعرب المسلمين، ففي عام ١٣هـ تقدم نحوها القائد أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وقد أعانه أهلها على عقد الجسر<sup>(٨)</sup>. وقد أكد القائد سعد بن أبي وقاص فيما بعد في رسالة بعثها للخليفة عمر بن الخطاب (رض) على ولاء أهل بانقيا وبسما واليس<sup>(٩)</sup>. وفي عهد الإمام علي عليه السلام استعمل على منطقة بانقيا أحد الثقيين وأوصاه بالقول: انظر خراجك فجد فيه، ولا تترك فيه درهماً، فإذا أردت أن تتوجه إلى عملك فمر بي<sup>(١٠)</sup>.

ويبدو أن منطقة (بانقيا) المطلة على بحر النجف قد أخذت تفقد أهميتها منذ العصر الأموي، وأخذ لفظ (النجف) يطغى على المنطقة حتى سمي البحر باسم النجف، ومن الجدير

(١) الأعشى: الديوان ص ٢٩٧.

(٢) الصدوق: علل الشرائع ٥٨٥/٢.

(٣) اليعقوبي: التاريخ ١٢٠/١.

(٤) الطبري: التاريخ ٣٤٦/٣.

(٥) قدامة بن جعفر: الخراج ص ٣٥٦.

(٦) أبو يوسف: الخراج ص ١٤٥.

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٣١/١.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٢.

(٩) أحمد عادل كمال: القادسية ص ٢١٣.

(١٠) الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٢٤/٢.

بالملاحظة إلى المنطقة الممتدة من النجف إلى الحيرة تأخذ بالانخفاض التدريجي وصولاً إلى مدينة الحيرة، وأن المنطقة المرتفعة عن مستوى سطح البحر كانت تدعى باسم (كتف البحر). وإن المتبع للمنطقة يرى ارتفاع الكتف في مركز النجف نحو ثلاثة أضعافه في منطقة الحيرة<sup>(١)</sup>.

### منطقة بحر النجف واتصالها الخارجي:

ترتبط منطقة النجف بالعالم الخارجي والأرض العربية بطريق مائي، وبطريق صحراوي، وقد أطلق على الطريق المائي لفظ (بحر، وهور، وبحيرة، ومستنقع، ومنخفض). وقد ورد في بعض النصوص التاريخية القديمة بلفظ (البثقة)<sup>(٢)</sup>. بلفظ (حاشير) ومعناه مجموع الماء<sup>(٣)</sup>، لأن المنخفض الذي يشكل منطقة بحر النجف عبارة عن صفحة مائية واسعة جعلت المشاهد الذي يقف على (كتف البحر) يبصر أرضاً مغمورة بالماء واسعة الأرجاء، وقد أطلق على هذه الطبيعة لفظ (البحر) من باب التضخيم والتعظيم، وقد أشار الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي إلى أن الأنهار التي كانت تصل إلى الحيرة ومنها (نهر الحيرة، ونهر يوسف، ونهر كافر) تتجمع في مجتمع الأنهار، وتصب في بحر النجف الذي كان مليئاً بالماء. وتصل إليه السفن البحرية<sup>(٤)</sup>. وقد أدرك عبد المسيح بن عمرو بن ببيعة الغساني حركة الملاحة وسير السفن في بحر النجف، وقد أشار إلى ذلك عند لقائه بالقائد خالد بن الوليد عند تحريره لمدينة الحيرة عام ١٢هـ بقوله: إن سفن الصين كان تمخر عباب البحر، ومن وراء النجف<sup>(٥)</sup>. وقد سأله خالد: (ما أدركت؟) فأجاب: أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا النجف بمتاع الهند والصين، وأمواج البحر تضرب ما تحت قدميك<sup>(٦)</sup>. وأضاف إلى أن مدينة الحيرة كانت ترتبط بالعالم الخارجي عن طريق البر أيضاً بقوله: رأيت المرأة تخرج من الحيرة، وتضع قلتها على رأسها لا تزود إلا رغيفاً واحداً حتى تأتي الشام، ثم أصبحت خراباً ياباً، وذلك دأب الله في العباد والبلاد<sup>(٧)</sup>. وأكد القائد سعد بن أبي وقاص عام ١٥هـ على هذين الطريقين اللذين يربطان الحيرة بالعالم الخارجي عند حديثه عن موقعة القادسية وقربها من بحر النجف بقوله: (إن القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر لاح إلى الحيرة بين طريقين، فأما

(١) ماجد الشمس: (حفريات مقبرة الحيرة) مجلة سومر، الجزء (٢١) المجلد (٤٥) لسنة ١٩٨٧-١٩٨٨م.

(٢) يوسف رزق الله: الحيرة ص ١١.

(٣) الجنابي: تخطيط الكوفة ص ٣٣ بول: دائرة المعارف الإسلامية (مادة الحيرة) ١٦١/٨.

(٤) العلي: محاضرات في تاريخ العرب ٧١/١.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ١٠٤/١.

(٦) الشابستي: الديارات ص ٢٤٠، الحميري: الروض المعطار ص ٢٠٩ وص ٥٧٥.

(٧) الشريف المرتضى: الأمالي ٢٦/١، الطوسي: الغيبة ص ٨.

أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحوض، يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة، وأما عن يسار القادسية إلى الوجه فيض من فيوض مياههم<sup>(١)</sup>. وقد أدرك المؤرخ المسعودي المتوفى عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م بحر النجف وحركة السفن فيه فيقول: (أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر سراً، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة. ومن وراء النجف وأشرف عليه)<sup>(٢)</sup>. وهذا له دلالة إلى أن بحر النجف كان يستمد ماءه من روافد نهر الفرات. ومن فيوض مياهه، فإذا جفت هذه الروافد أو ضعفت فإن الماء ينحسر عن منطقة البحر، ويبدو أنه في عصر المسعودي كان بحر النجف يعاني من قلة المياه.

وقد أشارت المصادر التاريخية والجغرافية إلى اتصال بحر النجف بالخليج العربي<sup>(٣)</sup>. فقد كانت السفن التجارية تغادر بحر النجف وهي محملة بالحديد والنحاس والقصدير من منتجات العراق وسوريا وبلاد الروم واليونان وتعود من الهند والصين وسيرالانكا وشرق أفريقيا محملة بالحرير والإستبرق والقرنفل والزعفران والصبغ والصدف والعاج والدر والمرجان وغيرها من السلع<sup>(٤)</sup>. وعند الحديث عن الحيرة قبل الإسلام وأوضاعها الاقتصادية أشارت المصادر إلى القول: كانت الحيرة من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرهما<sup>(٥)</sup>. وهذه النصوص تؤكد على ارتباط بحر النجف بالعالم الخارجي عن طريق الخليج العربي، ولكن يبقى لنا الوقوف أمامها بدقة الوصول إلى حقيقة الحال إذا علمنا أن الوصول إلى الخليج العربي عن طريق بحر النجف هل يتم بصورة مباشرة أم عن طريق نهر الفرات؟ وبعد تتبع النصوص وتحليلها تأكد لنا أن (بحر النجف) يتصل ببطائح الشنافية والسماوة وفيوض نهر الفرات، فالسفن الآتية من البصرة وهي في طريقها إلى النجف تخترق هذه البطائح ومن ثم تصل إلى بحر النجف، وإلى هذا الرأي يذهب الرحالة البرتالي (تكسييرا Teixeira) في رحلته عام ١٦٠٤م بقوله: (بانت لهم من بعيد بحيرة واسعة الأرجاء متكونة من مياه الفرات في وسط البادية، ولا يخفى أنها بحر النجف على حد تعبير الناس في يومنا هذا)<sup>(٦)</sup>. ويقول الأستاذ الدكتور مصطفى جواد: أن بحر النجف ترفده الأودية التي تأتي من النجا والغربية من صحراء السماوة القديمة،

(١) الطبري: التاريخ ٤٩٢/٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ١٠٣/١.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣٢٨/٢، أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٩٩، القلقشندي: صبح الأعشى ٣٣٣/٤.

(٤) يوسف رزق الله: الحيرة ص ٩١-٩٢، عندنان أبو الريحة: الاستيطان القبلي ص ٩٦.

(٥) البكري: معجم ما استعجم ٤٧٩/٢، الحميري: الروض المعطار ص ٥٧٥، البغدادي: خزانة الأدب ٣٩٤/٢.

(٦) جعفر الخياط: (النجف في المراجع) موسوعة العتبات المقدسة/ قسم النجف ٢٠٢/١.

ومن شمالي جزيرة العرب فيكون بطائح واسعة، ترى كأنها البحر، وكان من بقاياها بحر الشنافية، وبحر النجف، ولا يبعد اتصال هذه البطائح بالخليج العربي<sup>(١)</sup>. وقد أكد المستر بارلو في عام ١٨٨٩م صلة بحر النجف بالعالم الخارجي بقوله: إن أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف يسلكون طريق الفرات فالعطشان فالشنافية، وإن سفناً كثيرة ذات حمولة خمسين طنّاً تمر من هذا الطريق النهري الذي ينتهي بالنجف<sup>(٢)</sup>. وكان السيد ولیم كوكس، والكولونيل رمزي المقيم البريطاني في بغداد، والمستروان ايس، عضو البعثة التبشيرية في البصرة قد ركبوا زورقاً صغيراً في أهوار النجف ووصلوا به إلى الشنافية<sup>(٣)</sup>. وقد أكدت هذه النصوص على الاتصال المائي بين النجف والشنافية ومن الأخيرة يمكن الوصول إلى البصرة فالعالم الخارجي، وقد وافق الشيخ جعفر محبوبه هذه النصوص بقوله: إن هور النجف الذي امتد في جنوب البلدة من الشرق إلى الغرب، والقناة ساكنة على متنه مطلة عليه، ويدخل إلى هذا البحر بالقرب من الشنافية وطوله ينوف عن عشرة فراسخ وعرضه يتفاوت بين الأربعة والستة أذرع وعمقه من ثلاثة أذرع إلى عشرة أذرع<sup>(٤)</sup>. ومن الثابت أن بثوق نهر الفرات كانت تمون بحر النجف بالمياه، وبخاصة في أوقات الفيضان، ولما سدت هذه البثوق أخذ البحر في الجفاف، وقد ذكر الرحالة الجيکوسلوفاکي (الواموسيل) إلى جفاف البحر عام ١٩١٥م، حيث وقف على بناء السدة التي قطعت المياه عن بحر النجف وعند ذلك تحولت أراضيه إلى مزارع خصبة<sup>(٥)</sup>. ولكن الحقيقة تشير أن بدايات جفاف البحر تعود إلى عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، وذلك في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، فقد سدت في عهده منافذ بحر النجف<sup>(٦)</sup>. وقد أحكم وكيل السنية في مدينة الحيرة سد (المدلق أو المدلك)<sup>(٧)</sup> ولما أخذت منطقة البحر بالجفاف شق طريق ترابي من مدينة النجف إلى الرحبة ومنها إلى الديار المقدسة وقد سلكته قوافل الحجيج عبر الطريق البري الذي يربط النجف بالمدينة المنورة، ومن الملاحظ أن السدود المقامة على فروع نهر الفرات قد تؤدي إلى الانهيار من وقت لآخر مما يؤدي إلى إغراق بساتين بحر النجف وقطع طريق القوافل السالكة الخط الصحراوي إلى الحجاز<sup>(٨)</sup>.

(١) ن.م.

(٢) فؤاد جميل: هامش كتاب (في بلاد وادي الرافدين) ص ٦٢.

(٣) ويلكوكس: بين عدن والأردن ٣٦/١.

(٤) محبوبه: ماضي النجف وحاضرها ١٩٦/١.

(٥) الواموسيل: الفرات الأوسط ص ١٥٩.

(٦) فراتي: (الماء في النجف) مجلة لغة العرب ١٠/٤٥٧-٤٥٨. السنة الثانية ١٣٣١هـ/١٩١٣م.

(٧) حمود الساعدي: (أمكنة وحوادث فراتية) مجلة الإيمان العدد (١-٢) السنة الثانية ١٩٦٥م ص ٩٩.

(٨) المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥-١٩٣٦م ص ٩٠.

ويبدو أن (كتف البحر) وهو المنطقة المرتفعة عن سطحه والتي تعرف اليوم بالطارات كان الخط البري الذي يربط الحيرة ببلاد الشام وما زالت هذه الطارات قائمة على طول الطريق بين النجف وعين تمر، وقد أشار تقرير الموسم الأول لعمل البعثة الأثرية اليابانية في (عين شيا) و(كهوف الدكاكين) قرب مدينة النجف<sup>(١)</sup>. إلا أن هذه المنطقة كانت مكاناً لقدم مجاميع بشرية عاشت فيها أو أنهم سكنوها في أثناء طريقهم من الغرب إلى الشرق أو بالعكس في الفترة المحصورة بين القرن الثالث والسابع بعد الميلاد، وقد أكد المستر (هيديوفوجي) رئيس البعثة اليابانية بأن سكان هذه المنطقة كانت لهم علاقات وطيدة مع سكان دوارايورس وتدمر في سوريا وقال: إنه من المحتمل أن كهوف الطار قد استعملت من قبل سكان مختلفين أتوا من المناطق المجاورة<sup>(٢)</sup>. وقد بقي الصحراوي بين النجف والشام مسلوكاً في عصر دولة المناذرة في الحيرة، وفي العصور العربية الإسلامية فيما بعد.



(١) تقرير المستر هيديوفوجي رئيس البعثة الأثرية اليابانية في العراق، مدير معهد دراسات ثقافة العراق القديم في جامعة كوكوشيان طوكيو. ترجمة السيد رياض عبد الرحمن أمين.

(٢) مجلة سومر الجزء الأول والثاني، المجلة ٤٥ ١٩٨٧ ٩٨٨.